المصاب العام، بوفاة السيد الامام

محمد رشيد رضا

١٢٨٢ – ١٣٥٤هـ

-٣-

انكاره على رجال الدولة والحكام

أوتي السيد الفقيد من نور البصيرة، وسعة العلم، وشجاعة القلب، وظهور الحجة، وقوة اللسن، ما لم يؤته إلا الأقلون في كل عصر، وقد كان رحمه الله سريع الخاطر، حر البديهة، قوي الجواب، مفحماً ملزماً فيه، لا يبالي في سبيل الحق سطوة حاكم، ولا يخاف في الله لومة لائم، وانكاره على الملوك، والامراء، ورؤساء الحكومات، ورجال الدول والامم، أمر مشهور يعرفه كل من اطلع على مناره وقرأ مقالاته ومناظراته فيه.

واذا كان الله تعالى أعطى الولاية بشطريها – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – للرجال والنساء على السواء فقال: «المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» وكان النساء في صدر الاسلام يعلمن هذا ويعملن به، فقد سمعت امرأة من قريش أمير المؤمنين عمر الفاروق يخطب على منبر النبي (ص) ويمنع أن تزيد مهور النساء على أربعمائة درهم،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

فاحتجت عليه بقوله تعالى : « وآتيتم احداهن قنطاراً » فقال اللهم غفراً ، كل الناس أفقه من عمر .

قلنا إذا كانت النساء ترد على الخلفاء في ذلك العهد عملاً بهذه الآية الكريمة فهل يستكثر على صاحب المنار وهو امام في الدين والعلم أن ينكر على ملوك عصرنا فمن دونهم من الحكام ؟؟

كان له في صباه رحمه الله مع رجال العهد العثماني مواقف دات على ثبات جنانه ، وقوة ايمانه ، وشدة صدقه وإخلاصه . فمن ذلك أن أول خطاب عام ألقاه في طرابلس الشام ، بحضور المتصرف التركي وهو الحاكم الاداري العام (حسن باشا بن سامي باشا شيخ وزراء الدولة في عصره) والعلماء وجميع رؤساء الحكومة وسائر الوجهاء :

شبه في خطابه الامة بالفرد منها ، والجماعات العاملة للمصلحة العامة فيها — ومنهم رجال الحكومة والدولة بأعضاء الفرد من رئيسية كالدماغ والقلب ، ومشاعر وآلات ، وقال : إنهم يجب أن يكونوا سواء في الحقوق العامة والاحترام ، وإن كانوا يتفاضلون في العرف والاعتبار ، وشبه العاطلين الذين لا يعملون عملا نافعاً لأمتهم ويحتقرون الطبقات الدنيا من العاملين بقوله : « ولا التفات إلى سفهاء الاحلام ، المتكبرين بالأوهام ، الذين يحتقرون الزراع والصناع ، فإنما مثل الفريقين كالأعمى والأصم والسميع والبصير ، والنسبة بينهما كالنسبة بين الأيدي والأرجل في البنية ، وبين زوائد الأظافر والشعور لو كانوا يعقلون ! » .

وقد خشي عليه استاذه الجسر من ذلك الخطاب الجريء ، ومن الحرية المفرطة التي ظهرت فيه ، في بلاد مستعبدة لا تملك حق القول للمصلحة العامة ، بله العمل !! ولكن المتصرف كان من كبار أحرار الترك أولي التربية العالية ، وقد أثنى على الفقيد و قال : إنني أفتخر اليوم بأن أعد نفسي طرابلسياً لهذه الحكمة التي سمعتها من هذا الشاب ! وقد ذكر في كتاب المنار والأزهر أمثلة كثيرة لجرأته وشجاعته رحمه الله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اصلاحه في موطنه قبل هجرته الى مصر

يستسهل من لا خبرة له ولا دربة أمر إصلاح العامة مع أنه مطلب عظيم، لا يصلح له إلا كل من اتسعت معارفه، وكثرت تجاربه، فإن إصلاح ما طرأ من الخلل والفساد على الناس في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم وآدابهم من أشق الامور لا سيما إذا تمكنت الأهواء من النفوس، وطال عليها الزمن .

الواعظ الحكيم هو الذي يخاطب الناس بلسانهم، ويتحرى من أساليب القول ما يرى انه أدنى إلى اقناعهم، وقد كان رسول الله (ص) ينزل الناس منازلهم، ويخاطبهم على قدر عقولهم، ويقول : كلموا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟ فالمذكر أو الواعظ أو المرشد هو كما وصفه بعض الاجلاء ملخصاً : حافظ لحدود الله، قائم على ارشاد العقول، وتهذيب النفوس، وتصحيح المعتقدات، وإبانة سر العبادات وإماطة ما غشي الأفهام القاصرة من غياهب الجهالة، وترات الضلالة، واقف على مقاصد التشريع وحكمته، عالم مواضع الخلاف والوفاق، سائس لسامعيه بما يلائمهم من الاحكام، بل هو العامل الاكبر في إخراج الناس من ظلمات الجهالة الى نور العلم، وتحريرهم من رق الخرافات والوهم، فالعالم كالسراج إن لم ينتفع بضوئه فلا فائدة في وجوده بل لا يكون العالم عالماً حتى يظهر أثر علمه في قومه إذ ليس مسؤولا عن نفسه وحدها، بل عن عشيرته وامته » . أقول من لاحظ هذه الأوصاف، وعرف ما قام به الفقيد العظيم من الاعمال، وجدها منطبقة عليه تمام الانطباق واليك عمله في بلده :

بعد أن نال المترجم شهادة العالمية في مدينة طرابلس الشام، عاد الى بلده القلمون، وأخذ يقرأ درساً في المسجد يعظ الناس ويذكرهم فيه، ويذهب الى مقهى لهم يجلسون فيه فيجمعهم ويخطبهم، وكان فيهم أفراد تاركون للصلاة فاستتابهم، وجعل للنساء درساً خاصاً في دارهم القديمة، والزمهن تغيير زيهن بما

ذو أستر وأطهر ، فصرن يحافظن على الصلوات الخمس ، وحسنت حالهن في النظافة وفي معاشرة أزواجهن ، وأما نساء اسرته المباركة (بيت المشايخ) فكن كلهن يصلين على معرفة ، اذ كن متفقهات في دينهن محتجبات كأهل المدن في زيهن ، متفوقات في تدينهن وأدبهن ، فكان يقرأ لهن بعض كتب الادب أو التاريخ أو المواعظ . وجملة القول : انه رحمه الله جدد عهداً في القلمون بالدعوة الاسلامية التي عمت الرجال والنساء والبنين والبنات ، وهكذا فليكن العالم المرشد .

يذكر الفقيد أن المعلم الاول الذي كان له أكبر التأثير في دينه وأخلاقه وعلمه وعمله هو إحياء علوم الدين لحجة الاسلام الغزالي ، فهو من بعد أن طالعه كله لنفسه ، وأكثر من مراجعة بعض فصوله وأبوابه ، صار يقرأه درساً للناس في المسجد ويعظهم به ؛ والحق أن الإحياء هو كتاب وعظ وإرشاد ، يبحث في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق ، فيعلم العقول ، ويربي النفوس ، ويغذيها بأبان الحقائق ، ويحليها بالاخلاق الطاهرة ؛ ولا يكاد يوجد بين أيدي الواعظين كتاب من كتب الدين صالح لوعظ العوام من كل وجه ، كافل بما يحتاجون اليه من المسائل الدينية ، والشؤون المعاشية ، مثل هذا الكتاب (على شرط تجريده من الزوائد) فهو يذكر الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة في المباحث المعقودة في الباب ، ويردفها ببسط المراد من تلك الآيات والاحاديث ، ثم يذكر مراميها ، وحكم الأحكام وأسرارها ولطائفها ، ويضرب للناس الأمثال من سير بعض مشاهير الرجال وأخلاقهم . وقد كان شيخنا الشيخ جمال الدين القاسمي رحمه الله يقول : « ان من أنفع ما يقتبس منه موعظة المؤمنين ، مواضيع تنتخب من إحياء علوم الدين » . ثم اتفق أن تذاكر مع الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ـ أيام كان في ضيافته بمصر هو وصديقه الاكبر الاستاذ الجد الشيخ عبد الرزاق البيطار عام (١٣٢١) واستطلع رأيه في هذا الموضوع ، فقال الاستاذ المفتي متأسفاً : « إن هذا الموضوع لم يصنف فيه ،

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
مجمع اللغة العربية الجمهورية العربية السورية

إلا أن أحسن ما لدينا لذلك هو الإحياء بعد تجريده » فعمد استاذنا القاسمي ذلك من بدائع الموافقات ، واختصره في مجلد واحد سماه (موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين) فمن قرأه وجد موعظته حسنة ، ودعوته حكيمة ، وحجته واضحة ، وتأثيره كبيراً .

دخول شعر الفقيد وكتابته في طور جديد

نشأ الفقيد مولعاً بمطالعة كتب التصوف والادب ، ونظم الشعر في سن الحداثة ، وكان يحفظ الجيد منه ، ويميز بالسليقة بين الموزون وغيره ، وقد رثى شيوخه في علم الدين ، وأصدقاء والده وأسرته ، ومن أجلهم شيخ الشيوخ الشيخ محمود نشابه ، والاستاذ الاكبر الشيخ عبد الغني الرافعي ، والمرشد الاكبر الشيخ أبي المحاسن محمد القاوقجي ، ولم يرث من وجهاء الدنيا إلا الامير أحمد حسان الايوبي ، صديق والده وأكبر وجهاء الكورة في جبل لبنان ، فقد نظم فيه مرثية دالية اشتهرت حتى كادت تذكر مع مرثية المعري الدالية في فلسفتها ، ومرثية الشريف الرضي الدالية في تعظيم قدر المرثي بها . وقد قال في مطاعها[1] :

إن المنية غاية الميلاد ... والنعش مثل المهد للاولاد!
والله قد برأ الخلائق للبقا ... بعد الفنا وزيارة الالحاد
والموت باب النشأة الاخرى لنا ... وبها كمال الخلق والايجاد

ثم قال بعد أبيات في وجوب السرور بالموت واستنكار الحزن والحداد ، ومضارهما وقبح عاداتهما :

أطبيعة ذا الحزن ليس يشذ عن ... ناموسه فرد من الافراد
أم ذاك مما أوجبته شرائع الأديان من هدي لنا ورشاد ؟
أم ذلك العقل السليم قضى على ... كل الشعوب بهذه الاصفاد ؟
كلا فليس الامر ضربة لازب ... لكنه ضرب من المعتاد
فاخلع سرابيل العوائد إن تكن ... ليست بنهج العقل ذات سداد

(١) المنار والازهر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتقلد الحزم الشريف كصارم   كيما تنافح جيشها بجهاد
فانظر لموت الناس بالعين التي   ترنو بهـا لولادة الاولاد
هاتيك مبدؤنا وهذا تمنـا   طرفان مستويان للنقاد
بل آخر الطرفين خيرهما فخذ   بالاعتبار به والاستعداد

أقول : إن حزن القلوب وسكب الدموع على الاهل والمحبين أمر طبيعي لا يكاد يشذ عنه فرد من الافراد ، وفي الحديث « ان العين لتدمع ، وان القلب ليحزن » وان السيد الامام كان أشد الناس فجيعة بفقد أستاذه الامام (رحمهما الله تعالى) وإنما غرضه ان هذه القوافل التي ترحل عن هذه المنازل هي أسمى من أن تزول في التراب زوال الهشيم من النبات ، وإن هذه الارض ليست دار إقامة دائمة ، ولكنها ميدان واسع المدى متنائي الاطراف أوجده الحكيم المبدع وجعل ما على وجهه زينة له ، ثم سخره للسلائل البشرية ودفعهم للعمل فيه ومكنهم من ذلك بما أودع فيهم من القوى الظاهرة والباطنة ، ثم هو ينشئهم النشأة الآخرة فيجازيهم بما كانوا يعملون : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » ? « أيحسب الانسان أن يترك سدى » ? وهذا هو معنى قوله :

بل آخر الطرفين خيرهما فخذ   بالاعتبار به والاستعداد

ثم انه بعد اطلاعه على شؤون الاجتماع ، وسياسة العصر ، وبتأثير مجالس المرحوم والده مع أصدقائه وقراءة الجرائد التي كانت تأتيه (وعنده بعض أعداد جريدة العروة الوثقى) ثم بتأثير صحبة استاذه العلامة الشيخ حسين الجسر ، ومطالعة المجلات العلمية كالمقتطف والطبيب ، مالت نفسه لإدخال المعاني العصرية في الشعر ، فكان مما نظمه في ذلك القصيدة التي سميت (قصيدة الجاذبية) وقد نشر أبياتاً منها في المجلد الاول من المنار ، والقصيدة الجمالية التي خاطب بها السيد جمال الدين الافغاني في السنة التي جاء بها الاستانة ، ثم نشرها في المجلد الثاني من المنار ، والقصيدة الشرقية التي عاتب بها الشرق على تأخره عن الغرب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان آخر ما نظمه من الشعر (المقصورة الرشيدية) التي عارض بها مقصورة ابن دريد ، وكان سبب نظمها اقتراح صنوه وزميله في طلب العلم ، ومذاكرات الادب ، الشيخ عبد القادر المغربي ، أن ينظم مقصورة يهنئه فيها بزفافه ، فنظم مائة بيت ونيف ، ثم بدا له أن يتمها في معارضته الدريدية بإيداعها معاني كثيرة في فلسفة هذا العصر ، وفنون الادب والاجتماع المناسبة له، ولا سيما الاصلاح الاسلامي الذي وقف كل حياته على السعي له ، ثم هاجر الى مصر لأجله [1].

يتابع : محمد بهجة البيطار

(١) المنار والازهر (ص ١٨٤)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net